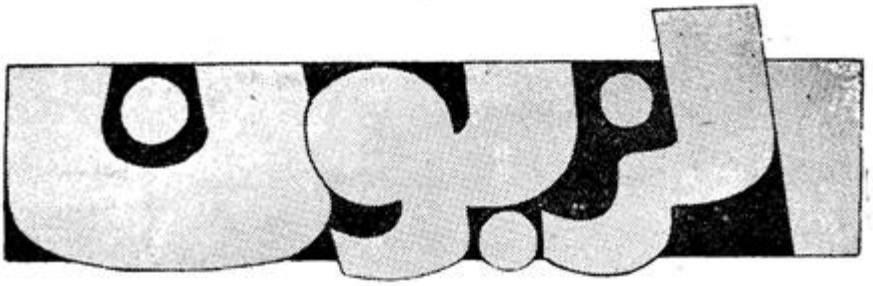

بقلم : صوفى عبد الله

كانت عيناه الباهتتان معلقتين بيد الطبيب وهو يكتب تذكرة الدواء ، بينما كل أنملة فيه ترتجف تحت وقع الحمى التى تاكل جسمه حتى احالته الى هيكل عظمى .

ماذا قال له الطبيب ؟

كيف تهمل صحتك يارجل هذه الشهور الستة تنهش فيك الحمى دون أن تعرض نفسك على طبيب ؟

عجبا ! ألم يعرض نفسه على طبيب ؟

ألم يقل أهل حيه ان « الدكتور على » أفضل من أى طبيب لقد عالجه بكل ذمة ولكن مرضه كان ميئوسا منه .. كل الذين عالجهم من أبناء جيرته نالوا الشفاء على يديه، لم يحدث أن أخطأ الباشتمرجى على فى علاج أحد ، محمد ابن بائعة الفجل .. واحسان بنت الحاج احمد ماتا من الاسراف فى الطعام قبل أن يتمائلا للشفاء تماما ،وليس هذا ذنب الباشتمرجى على ، أن أمعاءهما كانت ضعيفة ـ كما قال ـ من أثر المرض مما تسبب عنه موتها .

ولكن ألا يحدث أن يعالج أمهر الاطباء انسانا ثم يموت ؟ هذه ترهات، والاعمار بيد الله ، ثم ان طبيبنا على قدر الحال .. بعشرة قروش يكشف ، باقل يكشف ، والا ماذا كان فى مقدور «الغلابة» مثلنا أن يفعلوا ؟

وراحت عيناه الخابيتان تحاولان اللحاق باصابع الطبيب .

كم صنفا من الدواء كتب ؟ لقد امتلأ وجه التذكرة وهاهو يقلبها على الوجه الآخر ! الله وحده يعلم كيف جمع الجنيهين قيمة الكشف ... ليته كان يعلم لكان اقتطع من الخمسة جنيهات التى اقترضها من المعلم قرنى هذين الجنيهين بدلا من أن يدفع احدهما «للزناتى» لعمل حجاب له وبالآخر يشترى طلبات الجان التى أوصوا بها الزناتى . منذ ذلك اليوم لم تتقدم صحته .

كان يظن أن أجر الطبيب جنيه .. لم يصدق سمعه حينما طلب منه التمورجى جنيهين، ولكنه دفعهما صاغرا وماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ هل يمشى ويتركه ! وحتى اذا أراد أن يمشى لن تسعفه قدماه .. فهو لا يقوى على مجرد

الوقوف .. محمد خميسى الله يستره.. احضره فى سيارة التاكسى التى يعمل عليها وتركه على أن يمر عليه بعد ساعة ليعيده الى البيت، ثم انه يريد أن يعرف مابه .. يريد أن يتأكد من العلة التى تنهش عظامه .. انه يحس بالموت يدنو منه يوما بعد يوم .. من يربى أطفاله الستة وامهم لا تحسن عملا ؟ .. من يعولهم ؟ ابراهيم أكبرهم لم يبلغ التاسعة بعد .. بينما مصطفى لم يزل رضيعا .

مصطفى هذا أس البلاء ، منذ ولادته ركبته الامراض لايفيق من بلوى حتى تعقبها أخرى .. كل شىء كان يهون فى نظره الى أن أقعده هذا المرض اللعين ، وهد كيانه واسلمه للفراش ! لكم قاوم ولكنه تغلب عليه أخيرا ، ولو انه من أول الأمر ذهب الى أحد الاطباء المشهورين ، ربما لم يكن الداء قد استفحل معه على هذه الصورة .

ماذا قال له الطبيب .

ان العلاج الذى كنت تستعمله علاج الانفلونزا ، بينما أنت مصاب بالملاريا من الذى شخص لك هذا التشخيص الخطأ ؟

أيستطيع ان يقول له أن الباشتمرجى على هو الذى كان يعالجه ، وعالجه أيضا على أساس ان مابه ضربة شمس ، ثم قلبت بانفلونزا حادة ؟.

الله يسامحك يادكتور على .. خربت بيتى .

فى الصباح حينما حضر محمد خميسى ليصحبه الى الطبيب قالت له زوجته :

ـ ليس فى البيت مليم واحد ، ولا كسرة خبز ، وعم متبولى البقال رفض أمس أن يعطينى جبنا وحلاوة على الحساب قال بصوته الجهورى حينما استعطفته أن ينتظر لاول الشهر « لاياست ام ابراهيم «بطلنا نشكك» عوضنا على الله فيما فات

ثم عقبت :

ـ كان الاولاد سينامون بدون عشاء ، على لحم بطونهم لولا ـ الله يسترها ـ أم محمد جارتنا أرسلت لهم طبق بليلة حينما سمعت بكاءهم .

وماذا فى وسعه أن يفعل؟ هل سيقطع نفسه ! انه لايستطيع العمل .. حتى القروش التى كان يأخذها من عمله المنهك كان يحمد الله عليها مع الصحة .. ولكن راحت الصحة وراحت معها النقود ! .. ترى ماذا حدث للطلب الذى قدمه للعمل فى السد العالى ؟ هل سيكتب له القبول أم سيرمى فى سلة المهملات كما حدث لطلبات كثيرة أخرى قدمها لهيئات ومؤسسات عديدة فلا يجد لها صدى لسبب لا يدريه .. لن ينتشله من أزمته الا أن يفتح الله عليه بقبول طلبه هذه المرة .

لديه احساس أن شفاءه سيأتى على يدى هذا الطبيب .. صحيح ان كشفه «حراق» ولكن لاباس بجملة ما أنفق ما دام سيعيد اليه صحته .

ياسلام .. لايوجد فى الدنيا أثمن من الصحة .. حينما كان بصحته لم يكن يغلبه شىء .. كان يعمل طوال النهار لا يحس كللا، كان يأكل الفول والبصل وقديد الخبز .. كانت معدته تهضم الزلط .. لم يرقد يوما فى فراشه .. كان يضحك من الشبان الذين يمرضون

كان يرقد فى العراء ، لابردا يحس ولا شمسا يتحاشى ·· ماذا أصابه ؟

الله يسامحك يادكتور على ·· خربت بيتى ·

لو لم يسمع كلامه ·· لو لم يذهب اليه برجليه ·· كان صداعا بسيطا الذى أحسه · ·محمد خميسى هو الذى دفعه دفعا الى الذهاب ·

ـ تعال ياشيخ ، ده الباشمرجى على أفضل من ألف طبيب لم يخب علاجه مرة ·· تعال ولو من باب الاستئناس برأيه اذا لم يعجبك كلامه لاتستعمل علاجه ·· والمسألة كلها لن تكلفك أكثر من عشرة قروش كشف ، افرض انك اشتريت بهم حلوى لمصطفى ·· ودواؤه من أرخص ما يكون ·

الله يسامحك ياباشمرجى على · خربت بيتى ·

خرجت من عنده لاأدرى برأسى من رجلى ·

ـ ضربة شمس قوية يارجل اذا لم تعالجها ستقلب بحمى ·· لا تستهن بضربة الشمس فهى أخطر من الامراض المستعصية للذين يهملونها ·· اشتر هذه الاقراص والحقن ولا تترك فراشك حتى الصباح ·· لاينزل شىء معدتك ·· سأعطيك الآن حقنة ، وفى الصباح باذن الله سأمر عليك قبل ذهابى الى العيادة ، واعطيك الحقنة الثانية وأقرر ان كانت حالتك تسمح بذهابك لعملك ·· ولو انى أفضل ان تستريح فى البيت يومين على الاقل حتى تشفى تماما ·

ـ الله يسامحك يادكتور على·· خربت بيتى ·

خرجت من عنده لاأرى الطريق أمامى ·· أحسست أن امراض العالم قد لبستنى ·· لم أشعر فى حياتى بما

شعرت به هذه الليلة ، قشعريرة وبرودة يهتز لها جسمى ويهتز معه السرير «كالمريوح» ولا ينفع معها البطانية واللحاف ولا أم ابراهيم وهى تجلس فوقهما لتمنع جسمى من الارتجاف كأن عفريتا قد لبسه . ثم سخونة فظيعة أحس معها ناراً تصعد من جسمى ورأسى ولا أطيق حتى ملمس عدومى ، فأدفع أم ابراهيم والاغطية معها واحاول ان أتخفف من ملابسى واصرخ أن تغيثنى بماء مثلج .. الا أن القشعريرة تدهمنى مرة ثانية فاصرخ أن تسرع بتغطيتى . . وهكذا حتى طلع النهار وانا غير مصدق أننى على قيد الحياة .

الله يسامحك يادكتور على .. خربت بيتى .

ظل يعالجنى وكل يوم أصبح فى حال .. لم تنصلح صحتى منذ أن وطئت قدماى أرض بيته .. ستة أشهر زرت خلالها الشيخ مرزوق والشيخة هلاليه والشيخ أحمد أبو كيفه والاولياء والاضرحة .. لم تسمع ام ابراهيم على أحد الا وأخذتنى اليه واستنزفت كل مامعى .. ومددت يدى للقريب والصديق أنا الذى كان أهون على أن أدفن قبل ان أمد يدى لانسان .. ماذا أفعل ؟.. المرض مر والحاجة أمر منه .

وأخيرا أتانى محمد خميسى أيضا يعرض على أن يأخذنى الى هذا الطبيب.. سد أذنه عن توسلاتى أن يتركنى لأموت وكفى ما تركته لأولادى من الديون والله أعلم ماذا سيحدث لهم بعدى .. ولكنه استطاع أن يؤثر على أخيرا .

على الله أجد البركة وانشفاء على يدى هذا الطبيب ، يظهر عليه أنه ابن حلال « شاطر » . .هل سيكتب لى أن أشفى وأعمل فى السد وأسدد ديونى ؟ .

هاهى تذكرة الدواء ، يجب أن تواظب على كل دواء فى موعده ، اياك أن تهمل اذا كنت تريد أن تسترد صحتك وعافيتك .

ورفع عينيه الكليلتين الى الطبيب ، وقال بصوت واهن على قدر ما أسعفته حنجرته :

ـ الله يخليك ويعمر بيتك ، ولا يحرمك من صحتك أبدا .

ودون أن ينظر اليه الطبيب قال وهو يضغط على الجرس :

ـ اياك أن تهمل.. الامراض منتشرة هذه الايام ، ابوباء يحصد الناس حصدا.

ومد يده يتناول التذكرة من يد الطبيب ولاول مرة ينظر فى عينيه فاذا وميض السرور يلمع فى انسانيهما .

ـ أوبئة ؟ .. ياستار يارب .

فأجابه الطبيب وهو يتطلع الى عينيه بعينين لامعتين من غير أن يراه ، ويده على الجرس ايذانا للممرض أن يدخل « الزبون » التالى .

ـ أشكال والوان .

وتوقف الطبيب لحظة .. لحظة صغيرة جدا ، ثم استطرد بحرارة كأنه يحدث نفسه :

ـ الحمد لله !